المبحث الثالث

الصورة الشعرية

تعد الصورة الشعرية (وسيلة من الوسائل الرئيسية التي يتوسل بها الشاعر في بناء قصيدته، والتصوير أداة من الأدوات الأساسية التي يستخدمها الشاعر في تجسيد الأبعاد المختلفة لرؤيته الشعرية، وبواسطة الصورة يشكل الشاعر أفكاره غير المرئية أو المعنوية في صورة قريبة إلى الإدراك بالحواس ....)[168].

وقد تعدد مفهوم الصورة في النقد الحديث، وأحسب أن ذلك التعدد راجع إلى تنوع مشارب النقاد الثقافية، وتباين اتجاهاتهم الفكرية و مناهجهم النقدية [169] إلاَّ أننا نستطيع أن نقول: إن الصورة الشعرية (هي الشكل الفني الذي تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر في سياق خاص ليعبر عن جانب من جوانب التجربة الشعرية الكاملة في القصيدة، مستخدماً طاقات اللغة وإمكاناتها في الدلالة والتركيب و الإيقاع والحقيقة والمجاز والترادف والتضاد والمقابلة والتجانس، وغيرها من وسائل التعبير، والألفاظ والعبارات هما مادة الشاعر الأولى التي يصوغ منها ذلك الشكل الفني أو يرسم بها صوره الشعرية)[170].

وللخيال دور فاعل و مؤثر في تشكيل الصورة الشعرية، فهو الذي (يلتقطها ببراعة من مشاهدات الواقع، وملابسات الحياة اليومية، أويرتفع بها عن الحوادث العادية فيستمدها من مناظر الطبيعة، ومهابط الجمال الرقيقة، ويمزج بين عناصرها المختلفة فتجيء خلقاً جديداً يختلف في طبيعته وخواصه عن العناصر الأولية التي تألف منها)[171].

ولو عدنا بعد هذه الإشارة الموجزة لأهمية الصورة الشعرية وماهيتها إلى الصورة الشعرية التي توافرت في شعر العلاف الوطني، لوقفنا على صور عديدة، منها ما هو مستمد من المشاهد الحياتية التي تقع عليها عينه -وغيره -صباح مساء، ومنها ما هو مستمد من ذاكرته التي احتفظت في طياتها بكثير من الصور الشعرية القديمة، من جراء انكبابه على دواوين الشعراء القدماء في مطلع حياته الأدبية.

والناظر في تلك الصورة يقف على تنوعها، مابين صور جزئية يعتمد في بنائها على وسائل التصوير البياني المعروفة، من تشبيه، وكناية، واستعارة. وصور كلية تتكون من جزئيات، تتظاهر مع بعضها وتتآزر لتكون اللوحة الكلية، أو المشهد الذي عني بتجسيده.

ومن نماذج تصويره الجزئي ما جاء في قوله مصوراً أثر المشاريع العسكرية المدعمة بأفضل الأسلحة، في الذود عن حياض

الوطن، والمحافظة على أمنه ومنجزا ته[172]:

أمـا المشـارِيعُ العِظامُ فـإنهـا
أَسَـدٌ مـخـالِبُـهُ أشَـدُّ و أطْولُ

فـهـو هنا يشـبـه أثر المشـاريع العسكرية القـوي في رد كيـد المعتدين إلى نحورهم بالأسد المعروف بالشجاعة، والإقدام، وشدة البطش.

ويشـبـه توافـد أبناء وطنه على مـصـر طلبـاً للعلم، بالنجـوم المتلألئة في الليلة الكثيفة السواد، ووجه الشبه بينهما التتابع في الظهور، حيث يقول[173]:

أتوا مِثْلما تأتي النُّجومُ عَشِيَّةً
فـمـن كـوكَبٍ يَتْلوهُ آخـرُ كـوكبُ

ويشـبـه تسـامق الغابات في (الشفـا) بالأعـلام. ووجـه الشبـه بينهما العلو، والارتفاع، والظهور. حيث يقول[174]:

وللغـابـاتِ سِـحْـرٌ ذو جَـلالٍ
كـألويـةٍ تـرامَتْ في الفَـضَـاءِ

ولا يخفى على القارئ البصير تأثر العلاف في صوره الثلاث بالشعر العربي القديم، فصورة الأسد كثيراً ما تستدعى فيه للتعبير عن مـعـاني القـوة، والشـجـاعـة والإقـدام، وشـدة البطش. و النجـوم

والأعلام تستدعى كثيراً للتعبير عن المعاني نفسها التي قصدها العلاف. ومعنى ذلك أنه اعتمد في تشكيل تلك الصور على ذاكرته التي اختزنت في طياتها العديد من الصور القديمة.

وفي تصويره لسلوك أحد المتكبرين المتعجرفين نجده يعتمد على التصوير الجزئي، حيث يقول[175]:

كَـمِـثْلِ أَوِزَّةٍ مُلِئَتْ

غُروراً فـيـه تَجْـتَـرُّ

فهو يشبه ذلك المتكبر بالأوزة على سبيل التندر والسخرية، ووجه الشبه بينهما الانتفاخ دون طائل، وهو متحقق في الأوزة تحققاً حسياً، أما في الإنسان المتكبر فيتحقق تحققاً معنوياً. والخيال في هذه الصورة قريب، ودوره لم يتعد استحضار الشبيه والربط بينهما في مشهد واحد.

وفي صوره الجزئية التي اعتمد فيها على الكناية نقف على تأثره الواضح بالشعر العربي القديم، فهو يكني عن الفقر وسوء الحال برقيق الحواشي، حيث يقول في قصيدته (يد الإصلاح) [176]:

وشِـدْ بِفَـضْلِك للطُّلابِ أبْنِيَـةً

تُؤْوِي الغَـرِيبَ ومَنْ رقَّتْ حَـوَاشِـيـهِ

وفي قوله من قصيدته (عودة المجد)[177]:

فيها عكاظٌ تَمَطَّتْ بعد رَقْدَتِها
تَشْدُو (بفيصَلِنا) أيديهِ تَسجامُ

ففي قوله (أيديه تسجام) كناية عن كرم وسخاء الملك فيصل - رحمه الله - مع شعبه. وهذه الصورة تكررت كثيراً في شعر القدماء في المعنى نفسه.

وفي صوره الجزئية التي اعتمد فيها على الاستعارة نقف على حضور خيال الشاعر وتدخله في رسم أبعاد الصورة، خاصة عندما يبعث الحياة فيمن لا حياة فيه. وأكثر ما تظهر هذه الصور التي تنبض بالحياة والحركة في إشادته بالنهضة التي وصل إليها وطنه، وأثر تلك النهضة في إشاعة الفرحة والسرور في عالم المنتمين له.

ومن نماذج ذلك ما جاء في قوله[178]:

هَشَّتْ تجاعيدُ الصَّحاري بَهْجةً
وتَغلْغَلَتْ بِرِمالِها الأنْداءُ
وأرَى الجِبالَ تَشَامَختْ و تَهَامَسَتْ
طرباً صَداهُ تَبثُّهُ الدَّهناءُ

فهو عن طريق الاعتماد على الاستعارة المكنية شخَّص الصحاري بإسباغ ثوب الحياة الإنسانية عليها، فجعلها تفرح وتبتهج

بالأخبار والمشاهد السارة التي تسمعها وتراها مثلها مثل الفتاة. وأسبغ على الجبال الثوب ذاته، فجعلها تتشامخ زهواً وتتبادل الهمس. وصحراء الدهناء هي الأخرى لبست ثوب الحياة الإنسانية، وأخذت دور الإعلامي، تلتقط همس الجبال وسرورها بالنهضة التي تراها، ثم تشرع في بثها وإذاعتها، فرحة بالتقدم والنهوض الذي تشهده كل أراضي الوطن.

وفي قصيدته (عودة المجد) يقول[179]:

والنَّخلُ أَذْرُعها قد لَوَّحَتْ جَذَلاً

وأَرْهَفَتْ سَعفاً ناجَتْهُ آكامُ

فأشجار النخل في هذا البيت قد ألبسها الشاعر ثوب الحياة الإنسانية، عن طريق الاستعارة المكنية، فإذا هي تلوِّح بأذرعها فرحة بمرائي النهضة التي تحيط بها من كل جانب، والآكام هي الأخرى تخلت عن صمتها السرمدي وهاهي ذي تناجي السعف المتهدل جذلاً وتبثه سرورها بما تراه.

وهاتان الصورتان توحيان بالفرحة التي تلبست عالم الشاعر الوجداني، وهو يرى مشاريع التنمية والنهضة التي كان يحلم بها ويتمناها لوطنه واقعاً ملموساً، تسر برؤيتها الأحداق وتبتهج النفوس، أنَّى اتجه في وطنه المترامي الأطراف، وفي أي درب سار.

وتتلقانا في شعر العلاف الوطني بعض الصور الكلية، وهذه الصور لم تتجاوز المظاهر الحضارية والتنموية التي يشهدها وطنه. وقد تنوعت هذه الصور، فتارة يعتمد في تشكيلها على اللغة الحقيقية والتصوير المباشر، و تارة يعتمد على وسائل التصوير البياني، بأدواته المختلفة المعروفة.

ومن نماذج النوع الأول قوله(180):

قَلِّبِ الطَّرْفَ في الرُّبوعِ تَجِدْها
أمَلاً ماثلاً وبعثاً يمورُ
غلغلَ العلمُ حُبَّهُ في قُراها
نافخاً رُوحَهُ فعمَّ النُّشورُ
واحتفى البدوُ بالكتابِ نزيلاً
بعد أن كَانَ لا تَراهُ الخدورُ
وتداعَوْا إلى الحواضرِ شوقاً
لحَياةٍ يقودُها التَّطويرُ
لا أرى الغازَ غيرَ رَشْحٍ غَزيرٍ
قَطَّرتهُ جِباهُهُمْ والنُّحورُ
والقوانينُ والمشاريعُ تَتلو
بعضَها و النُّهوضُ مدٌّ كبيرُ
فاقْتِصادٌ مُدَعَّمٌ وخُطوطٌ
مُعْرِقاتٌ بها النَّشاطُ سَفيرُ

يتـــملَّـــى بهـــا الحـــجـــيـــجُ أداءً
في خـشـوعٍ و يُنْتـفى التـأخيـرُ
والـمـجـالاتُ والمرافقُ شَـتَّى
سُـبـلٌ رَحْـبَـةٌ وزحْفٌ غـيـورُ
إِنَّـهُ حـاضِـــرٌ فـتىً طمـــوحٌ
لا يـرائيـهِ بالكمـــالِ غـــرورُ

فالأبيات التي أمامنا تكاد تخلو من العبارات المجازية، باستثناء ما جاء في عجز البيت الثاني (نافخاً روحه فعمَّ النشور)، وهي مع ذلك تعطي صورة كلية للنهضة التي يعيشها وطنه -حاضرة وبادية - في مختلف الميادين والمجالات.

والصورة التي قدمها العلاف تجسد واقع الحياة الجديدة التي ينعم بها وطنه و المنتمون إليه، بعد أن شع نور العلم في سائر أرجائه، وتم استئصال شأفة الجهل الذي كان يشكل عقبة كأداء في طريق التقدم والتطور، وتوافر المال الذي يعد حجر الزاوية في إحداث النهضة التي أخذت في الانتشار.

فها هي أنوار العلم تنتشر في سائر أرجائه، وهاهم أبناء البادية يتوافدون على المدن، إما للاستزادة من العلم، أو بحثاً عن العمل بعد أن نالوا قسطاً منه. وهاهي ذي المشاريع التنموية تتوالى في الظهور، حاملة معها البشرى لإنسان هذه الأرض برفاهية ورغد

العيش، وتوديع الجهل وسنوات من الشقاء والفقر الذي كان يعاني منه أغلب قطانها.

وقد جاءت الصورة الكلية التي رسمها عامرة بالحركة والحياة، ويرجع ذلك لاعتماده على مجموعة من الألفاظ التي من خصائصها الحركة، من مثل: (بعثاً، يمور، النشور، غلغل، تتلو، قطرته، تداعوا، زحف).

ومن نماذج النوع الثاني من الصور الكلية، ما جاء في قوله مصوراً مدينة جدة بعد أن امتدت إليها يد النهضة[181]:

كم ذا رأيتُ وبالطَّيرانِ مُرْتَحِلاً
تخطيطَها الحُلْوَ و الأمواجُ تَختالُ
غنيةٌ هي بالألوانِ ساحِرةٌ
من الطَّبيعةِ والعُمْرانُ أَشْكالُ
البحر من تحتُ و الزَّرقاءُ مُطْبَقَةٌ
من فَوْقِهِ والحنايا الخُضْرُ خَلْخالُ
والشَّارعُ الطَّلْقُ كالأخدودِ شاهقة
به العمائر فيه الضَّوءُ شَلاَّلُ
كالمشطِ يمتدُ بالرُّكَّابِ مُزْدَحِمٌ
على نماذجِ تَزْ هو وهي أَرْتالُ
والليلُ فيها تَفُوقُ الصُّبْحَ فِتْنَتُهُ
هو الرَّبيعُ تَوارَتْ فيه أَشْغالُ

وفي الشَّـواطِئِ أفـواجٌ مُـرَفَّـــهَـةٌ
من حَـوْلِهـا الزَّهْرُ بَسَّامٌ ومَـيَّـالُ
رَقَّ الهـواءُ و نَجْـوى كُـلِّ هَامِـسَـةٍ
والبَـحـرُ صَـدْرٌ وللأسـرارِ حَـمَّـالُ
وللمـيـادينِ تطـوافٌ و عَـبْـقـرةٌ
بهـا المرورُ ازَدهـى وافْـتَنَّ تمـثـالُ
أمـا الـجـسورُ فـأضـلاعُ مُـشَـبَّـكَةٌ
فـيـهـا الرباعي للتَّـعْـقِـيـدِ حَـلاَّلُ

فالأبيات التي أمامنا تحمل في حناياها صورة كلية التقطتها عدسة الشاعر وهو في الطائرة لمدينة جدة بعد أن عمتها مظاهر التقدم والنهوض، فإذا هي مدينة عصرية، تدهش الأبصار روعتها. وقد اعتمد في تشكيل تلك الصورة التي تجسد واقع جدة على صور جزئية عديدة، تضافر التشبيه، و الاستعارة، وتراسل الحواس، مع الاستخدام الحقيقي للغة في تقديمها.

ففي البيت الأول تتبادل الحواس أدوارها، فإذا التخطيط الذي هو مظهر حسي تدركه العين ينعت بالحلاوة التي تدرك بحاسة الذوق. ويشخص الموج فيجعله يزهو بنفسه و يختال مثله مثل الإنسان، وتنقل لنا اللغة الحقيقية في البيت الثاني جمال جدة الذي استمدته من تعدد المناظر الطبيعية فيها والعمران المتناسقة أشكاله و ألوانه. وفي البيت الثالث يصور جدة وهي واقعة بين زرقة السماء

والبحر عبر اللغة الحقيقية، ويشبه الخضرة التي تحيط بها من كل جانب بالخلخال يحيط بساق غانية. وفي البيت الرابع يتراءى له الشارع الممتد - وهو في الطائرة - كالشق في الأرض، ترتص على جانبيه العمائر الشاهقة، تزيده جمالاً الأضواء المنبعثة منها كأنها شلال. وفي البيت الخامس يشبه استواء الشارع واستقامته بالمشط، بينما تقطعه جيئة وذهاباً أرتال من المركبات المختلفة في أشكالها وألوانها. وفي البيت السادس يشبه الليل و الأثر الذي يحدثه في نفوس عشاقه بالربيع، الذي تنعش الأرواح نسماته العليلة، وتبهج الأحداق الخضرة التي تسفر عنه؛ فيذهب العناء، وتتجدد النفوس. وفي البيت الذي يليه يجسد عشق الناس لشواطئها الجميلة، فهم ما إن يقبل الليل، ويرخي سدوله على الأفق، حتى يخرجوا إليها، طلباً للراحة و الاستمتاع بتدافع الأمواج وانسيابيتها، والانتعاش بالروائح العطرية التي تضوع من الزهور التي تزينها، وقد شخصها الشاعر فجعلها تسر بمرأى الناس فتبتسم لهم وتتمايل طرباً من إعجابهم بها. وفي البيت السابع يشبه البحر بالصدر الكتوم للأسرار، فهو يشرع أحضانه لهمس مرتاديه وشكاواهم، ثم يطبق عليها ولا يذيعها أو يفشيها. وفي البيت الأخير يشبه الجسور التي استحدثت لتسهيل الحركة بالضلوع لتشابكها.

والناظر في الصورة السابقة يقف على توافر مجموعة من العناصر القادرة على بث الحيوية في أو صالها، فهناك الحركة،

والصوت، واللون، والرائحة، مما يدل على اشتراك معظم حواس الشاعر في تجسيدها.

فالحركة نحسها في تدافع المركبات في ذلك الشارع الممتد، وعلى الجسور المتشابكة، وفي تزاحم الناس على شواطئ جدة، وفي انسياب النسيم العليل في الليل ليلطف الأجواء وينعش النفوس، وفي إقبال أمواج البحر و إدبارها.

والصوت نسمعه في أزيز المركبات، وتدافع الأمواج، وهمس الناس ونجاواهم.

واللون نبصره في العمائر والأضواء المنبعثة منها، وفي المناظر الطبيعية والصناعية المتعددة الأشكال والألوان، وفي مياه البحر، وفي الليل الذي يزيد شواطئها جمالاً بإضفائه ثوب الهدوء عليها.

والرائحة نتلقاها من الزهور التي زينت تلك الشواطئ بجمال أشكالها وألوانها، وعطرت بأريجها الفواح أجواءها.

والصور الجزئية التي تكونت من مجموعها الصورة الكلية، جميعها مألوفة. فهي مما تقع عليه أحداق الناس صباح مساء، أو اكتسب حضوراً واسعاً في ذاكرة المتلقي ومخيلته، ودور الخيال فيها محدود فهو لم يتجاوز مجرد التأليف بين عناصرها، والجمع بينها في مشهد واحد ومع ذلك استطاعت تلك الصورة تجسيد مظاهر

التقدم والنهضة التي انتشرت في مدينة جدة، لتجعل منها لوحة جميلة متجددة، لاتمل العين رؤيتها، ولا النفس عشقها وهواها.

وبعد هذه الوقفة مع صور الشاعر التي جسد بواسطتها أفكاره ومعانيه في شعره الوطني، تبين لنا أن كثيراً من صوره تلك قد غلب عليها الجفاف والتقريرية، و أحسب أن السبب في ذلك راجع إلى أمرين اثنين:

أولهما: تعامله في عدد من قصائده الوطنية مع اللغة التي هي الأداة الأم في بناء النص الشعري على أنها وسيلة لتوصيل أفكاره، مجردة من الدلالات الإضافية التي تكتنزها في ذاتها، وما يتولد عنها من إيقاع، وصور، وظلال، و إيحاء.

ثانيهما: استمداده لها من الشعر العربي القديم، والمشاهد الحياتية التي تقع عليها عينه - وغيره - صباح مساء، وعدم إعماله فكره وخياله فيما يأخذه أو يراه، ومن ثم التعبير عنه تعبيراً فنياً قادراً على التأثير في وجدان المتلقى، والتخليد في ذاكرته، بما يحمله من مقومات التأثير والجمال.